هذه الجامعة نفسها حيث نلت شهادة البكالوريوس (١٩٥٥) والماجيستير (١٩٦٠)، وبعدها تمكّنتُ من متابعة دراستي في جامعة ميشيغن التي نلتُ منها دكتوراه في علم النفس الاجتماعي (١٩٦٦)، الأمر الذي أهّلني للتعليم الجامعيّ الذي أمارسه حتى الآن. ومن تجاربي الشخصية أنه أتيح لي أن أتعرض لمختلف الثقافات دون أن أفقد إحساسي وتمسّكي بهويتي؛ بل تعمّقتْ أحاسيسي بهويّتي من خلال تعرّضي للثقافات الأخرى، كما يتّضح من روايتي **طائر الحوم**.

وقد وفّر لي التعليمُ الجامعيّ المناخ لتنمية مهنتي وهوايتي بحرية ودون ارتباط أو التزام إلا بقناعاتي الخاصة. وحين أتمكّن من إقامة مصالحة بيني وبين نفسي، فقد يعود الفضل في ذلك إلى مثل هذا الالتزام. ولكن هل يستطيع المبدع حقاً أن يعيش في انسجام مع نفسه؟ في رأيي أن بين أهم مضامين الإبداع التساؤلَ والنقاشَ مع الذات كما مع الآخر، فيعيش المبدع ـ كما قلت في حديث لي عن أدونيس ـ في عالم الالتقاء بين الأمل واليأس، والأنا والآخر والواقع والحلم والعقل والحدث، وذلك في انسجام أبديّ وتنافر أبديّ. تلك هي أزمة القلب الإنساني مع نفسه، كما يقول فولكنر.

أما على صعيد الأحداث العامّة، فأقول إنني تأثّرتُ بشكل خاصّ ومنذ طفولتي في بيروت بالقضية الفلسطينية، فرافقتُها حتى اليوم بوصفي جزءاً عضوياً منها وأعيش مآسيها على أنها مأساتي الخاصة. وقد تأثّرتُ إلى حدّ المعاناة بخيبات الأمل والانتكاسات والإحباطات العربية، وخاصة حرب الخامس من حزيران ٦٧ التي كتبتُ عنها روايةً وثائقية هي رواية **عودة الطائر إلى البحر**. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الشهادة، قرأتُ بغضب وحزن معاً أن فلسطينياً راقبَ جرّافةً إسرائيلية تمهّد الأرض لبناء مستوطنة يهودية على أرضه فقال: «هل هناك ما هو أصعب على النفس من هذا المنظر؟ يأخذون أرضك، وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تراقب. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ لا نستطيع أن نفعل شيئاً. هم أقوياء، ونحن ضعفاء». حين نسمع مثل هذا الكلام، هل نستطيع أن نقيم مصالحة مع أنفسنا ومع قادتنا ومجتمعنا وثقافتنا السائدة دون أن نفقد إنسانيتنا؟

أما كيف أنظر إلى الواقع الاجتماعيّ، فإنني أراه في حالة تناقض وصراع تسوده علاقاتُ القوة والاستغلال الداخلي والخارجي. وقد حاولتُ أن أحدّد لنفسي طبيعة هذه التناقضات ومصادرها والصراع الناجم عنها وموقعي بين الحركات المتصارعة. أليس في المثل الحسيّ الذي ذكرته جوابٌ لتساؤلاتي؟

وقد أتاح لي بُعدي عن مراكز السلطات الحكومية والاجتماعية والحزبية والفئوية أن أتمسّك بحرّيتي الشخصيّة وأن أكتب انطلاقاً من قناعاتي الداخلية. كما أنّ موقعي هذا وتعرّضي لمختلف الثقافات، أسهما في تنمية قدراتي الإبداعية. لذلك أبحث عن العلاقة بين النفي والإبداع، وأتفهم عمق المأساة التي عانى منها الكثير من الكتّاب العرب لقربهم من مواقع السلطة سياسية كانت أم اجتماعية.

وأما موقفي من المقدّس، فإنني أصل بينه وبين علاقة الإنسان بالمجتمع وأقول بمبدإ القيم والحقائق النسبية لا المطلقة، بقدر ما أحترم معتقدات الناس الدينية والروحية الصادقة. أقول «الصادقة»، لأني أرى نزوعاً كبيراً إلى استغلال المقدّسات في مجالات الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لديّ تحفظاتي على هذه الظاهرة وعلى أصحابها، وخاصة حين يمارسون الإكراه وفرضَ معتقداتهم وتفسيراتهم الخاصة على الآخرين بالقوة وبالعنف، فيكون وضعُ العربي أشبه ما يكون بوضع الفلسطينيّ الذي يراقب أرضه تُسلَب منه. وأرى أنّ التعبير الفنيّ ملزَم بشكل خاصّ بتناول علاقات القوة والإكراه وبالكشف عن المكبوتات والمخاوف، وذلك من موقع نقديّ.

وتعاملي مع اللغة هو تعامل حرّ، ولكنني أنفر من اللعب باللغة لذاتها أو لمجرّد إبراز مدى معرفة الكاتب بها. هي أيضاً كما أراها يجب أن تنبثق بحرية من التجربة الإنسانية التي نكتب عنها. إنّ عدداً من كتابنا يلجأون إلى اللعب باللغة المفرَغة من معانيها لأنه لم يعد بإمكانهم الخوضُ في كثيرٍ من الموضوعات التي أصبحتْ محرّمة.

وفيما يتعلّق بالملامح الفنية في أعمالي الروائية، فأنا أشدّد على ربطي بين الواقعية والرمزية من خلال استعمال الأساطير والمجاز والتشبيه والصور. في مجموعتي القصصية **الصمت والمطر** اتخذتُ الطوفان رمزاً أو مجازاً لصراع الإنسان مع القوى الجبّارة، في محاولة للتأكيد على حريته وإصراره على الفعل بالتاريخ مهما كانت الصعوبات. وفي روايتي **ستة أيام**، اخترعتُ مدينة اسميتها «دير البحر» محاصرةً من قبل عدوّ جبار يهدّدها بالاستسلام أو بمحوها عن وجه الأرض، فاختارت المقاومة رغم ضعفها. وفي **عودة الطائر إلى البحر** استعملتُ أسطورة الهولندي الطائر الذي هو مجاز لتجربة الفلسطيني المنفيّ الذي تسنح له بين وقت وآخر فرصٌ تاريخية للعودة إلى وطنه ليكتشف